معالم المنهج العلمي في نقد عقائد النصارى عند علماء المسلمين،

أبو العباس القرطبي من خلال كتابه الإعلام أنموذجا

د. يوسف الشاطر

المملكة المغربية

الملخص

يتناول هذا البحث موضوعا من مواضيع علم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، وهو دراسة عقائد النصارى تحليلا ونقدا، مركزا على عالم من علماء المسلمين الذين كتبوا في الموضوع، وهو أبو العباس القرطبي. ويهدف إلى إبراز إسهامات علماء المسلمين في دراسة مختلف الأديان التي عاصروها، وخاصة دراسة جهودهم في نقد عقائد أهل الكتاب، وبيان أهم معالم المنهج العلمي في نقدهم ذاك، ومدى موضوعيته وحياده. أما عن أهداف البحث فهي التأكيد على سبق المسلمين في مجال دراسة الأديان دراسة علمية.

الكلمات المفتاحية: علماء المسلمين. القرطبي. نقد الأديان. المنهج العلمي

مقدمة:

يعتبر علم الأديان من العلوم الإنسانية القديمة – الحديثة، فو قديم بالنظر إلى موضوعه "الدين" الذي ارتبط بالإنسان منذ وجود على وجه هذه البسيطة، وحديث بالنظر إلى مناهج وأساليب البحث فيه، والتي لم تقعد إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وبسبب ذلك فقد اختلف الباحثون في المجال حول نشأة هذا العلم وحول مؤسسيه، وحول بداياته الأولى. ورغم أن الجميع يتفق على أنه لم يظهر علما قائما بذاته وفق مناهج وقواعد معينة، إلا في أوربا منذ أواسط القرن التاسع عشر، وأنه علم حديث النشأة، وضع وثيقته التأسيسية عالم الفيلولوجيا الألماني ماكس مولر. فإن أغلب الباحثين يرون أن جذوره وإرهاصاته تمتد في أعماق التاريخ، بدءا من مرحلة الألواح المسمارية، مرورا بالفراعنة والهنود والإغريق واليونان، ووصولا إلى العصر الإسلامي، ثم الغرب الحديث.

ولهذا يمكن أن نعتبر علم الأديان علما مشتركا بين مختلف الثقافات والحضارات الإنسانية، قديمها وحديثها، فكل واحدة أسهمت حسب إمكانياتها وظروفها في بناء صرح هذا العلم، حتى اكتمل نضجه في أوربا.

وتعتبر الحضارة الإسلامية من أكثر الحضارات إغناء لعلم الأديان، وإسهاما في تأسيسه، حيث يؤكد أكثر الباحثين في المجال أن علماء الإسلام قدموا إسهامات لا يمكن

إغفال قيمتها العلمية، أو التقليل من شأنها في مجال علم الأديان، بل أكثر من ذلك اعتبر بعضهم – سواء من المسلمين أو من الغربيين – علم الأديان، علما إسلاميا، ابتكره المسلمون وكان لهم فضل السبق في إظهاره وإخراجه للوجود. ومن أبرز ما أسهم فيه علماء المسلمين في ميدان دراسة الأديان، ما يتعلق بنقد عقائد أهل الكتاب، حيث تصدى عدد منهم لهذا الفرع العلمي، وصنفوا فيه مصنفات عديدة.

إشكالية البحث:

إن هذه الإشادة بأثر علماء المسلمين في علم الأديان، والتنويه بدراساتهم، والإقرار بسبقهم، إنما ينطبق على أعلام بعينهم ودراسات محدودة، خاصة ابن حزم والبيروني والشهرستاني، في حين يتم تغييب عدد كبير من الأعلام، وتهميش دراساتهم للأديان بدعوى عدم علميتها، أو عدم حيادها وموضوعيتها. ومن بين هذه الدراسات التي يتم تغييبها وتهميشها تلك التي تعنى بالرد على أهل الكتاب وبيان فساد عقائدهم وبطلانها وتحريفها. فهي في نظر الدارسين الغربيين تنحو نحو الجدل والرد المتعصب، والسعي نحو الحط من قيمة الأديان المدروسة، وهذا ما يجعلها بعيدة عن العلمية والموضوعية المنشودة في علم الأديان.

فهل فعلا ابتعدت دراسات علماء المسلمين الجدلية للأديان عن العلمية والموضوعية؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون رجما بالغيب، لا يتكئ على أدلة واضحة، واستقصاء دقيق لما جاء في تلك الدراسات؟ وما هي إذن أهم معالم المنهج العلمي في دراسات علماء المسلمين الجدلية للأديان؟

أهمية البحث:

وردا على الأسئلة السابقة يأتي هذا البحث المعنون ب: "معالم المنهج العلمي في نقد عقائد النصارى عند علماء المسلمين، أبو العباس القرطبي من خلال كتابه الإعلام أنموذجا. ليسلط الضوء على هذا العالم المسلم من جهة، وليبرز من جهة أخرى ملامح منهجه العلمي في دراسة الأديان، وما قدمه من أبحاث ودراسات في مجال نقد عقائد النصارى. وليؤكد لنا أن الدراسات الجدلية لعلماء المسلمين لم تخل بدورها من شروط العلمية التي نص عليها علماء الغرب منذ القرن التاسع عشر.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة ومدخل عام ومبحثين وخاتمة، فتناولت في المقدمة موضوع البحث وإشكاليته وأهميته. وفي المدخل العام تناولت بعض العوامل التي دفعت علماء المسلمين لدراسة الأديان، والمناهج التي اعتمدوها في ذلك، مركزا على منهج الرد والمجادلة. وفي المبحث الأول عرفت بأبي العباس القرطبي وبكتابه الذي درس فيه الأديان ورد فيه على عقائد النصارى. وفي المبحث الثاني تطرقت لمنهج القرطبي في نقده لعقائد النصارى مبينا معالم المنهج العلمي في ذلك، وذاكرا النتائج التي توصل إليها، والتي لا تختلف كثيرا عما وصل إليه علماء الأديان المعاصرون. أما الخاتمة فجعلتها لأهم النتائج المتوصل إليها في البحث.

مدخل عام: عوامل دراسة الأديان عند علماء المسلمين ومناهجهم في ذلك

لقد كانت وراء نشأة هذا الفرع العلمي في الفكر الإسلامي، بواعث ودوافع كثيرة تآزرت وتساندت في توجيه علماء الإسلام وحثهم على الإقبال على هذا الحقل العلمي الجديد، وتنميته وتطويره موضوعا ومنهجا[1]. وقد ذكر الباحثون كثيرا من هذه العوامل التي لم تختلف بينهم إلا نادرا أو في طريقة التعبير عنها، فذكر إبراهيم تركي القرآن الكريم وما حوى من إشارات ودعوات لتناول الأديان بالدراسة والتحليل، والتأكد من أن الإسلام هو الدين الحق، وذكر اتساع الفتوحات الإسلامية، والاحتكاك بأصحاب الديانات الأخرى، كما ذكر ازدهار التأليف عند المسلمين، وتسامحهم اتجاه أتباع الأديان الأخرى[2]. وذكر مسعود حايفي عامل الاعتراف بالأخر المختلف دينيا، وعامل نشاط حركة الترجمة في العصر العباسي.[3] وعموما يمكن القول إن علم الأديان، أو علم مقارنة الأديان قد اجتمعت أسباب ظهوره عند المسلمين من إشارات قرآنية، واتساع رقعة البلاد

1 الشرقاوي محمد عبد الله، في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، دار الفكر العربي القاهرة، 2002، ص34

2 تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، 2002، ص34-37.

3 حايفي مسعود، مدخل لدراسة تاريخ الأديان، دار الأوائل للنشر والتوزيع دمشق، 2010، ص43

الإسلامية، واحتكاك المسلمين مع باقي أتباع الأديان الأخرى، إضافة إلى التسامح الذي عرف به المسلمون اتجاه باقي الأديان. يقول دين محمد ميرا: "لقد ظهرت الدراسة التحليلية النقدية للأديان كنشاط علمي له قواعده وأصوله، ومناهجه ومفاهيمه في العالم الإسلامي على أيدي علماء المسلمين الذين كان للقرآن الكريم فضل تنبيههم إليها، وجذبهم نحوها وإن كانت الظروف الاجتماعية مثل الاحتكاك بأهل الأديان الأخرى والتعايش معهم، وكذلك واجبات الدعوة والتصدي لشبهات الآخرين، والدفاع عن حظيرة التوحيد ومبادئ الإسلام كل تلك – مجتمعة أو منفردة – الأسباب المباشرة لبروز هذا النشاط العلمي لديهم."[1]

وهكذا وجد المسلمون أنفسهم – بفعل العوامل السابقة – مدفوعين دفعا نحو تناول الأديان بالدرس والتحليل. فمنذ القرن الثاني الهجري انفتح الفكر الإسلامي على أديان العالم، وجعلها موضوعا مستقلا للدراسة والبحث، ووضع علماء الإسلام لذلك مناهج علمية سديدة، فوصفوا أديان العالم وحللوها وقارنوا بينها وأرخوا لها وانتقدوا بعضها[2]. ورغم أنهم لم يكونوا السباقين إلى ذلك، إلا أن دراستهم للأديان امتازت عن دراسة من سبقهم – حسب عبد الله دراز – بطابعين جديدين: الأول هو أن الحديث عن الأديان أصبح دراسة وصفية واقعية منعزلة عن سائر العلوم والفنون، شاملة لكافة الأديان المعروفة في عهدهم. والثاني هو أنهم لم يعتمدوا في وصفهم للأديان المختلفة على الأخيلة والظنون، ولكنهم كانوا يستمدون أوصافهم من مصادرها الموثوق بها[3].

وقد اتبع المسلمون في دراساتهم للأديان مناهج كثيرة ومختلفة، منها منهج الوصف والتأريخ مع البيروني والشهرستاني مثلا، والمنهج المقارن مع العامري، والمنهج

---

1 ميرا دين محمد، في علم الدين المقارن، مقالات في المنهج، دار البصائر القاهرة، 2009، ص33

2 في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، مرجع سابق، ص32

3 دراز عبد الله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم للنشر والتوزيع القاهرة، 2003، ص21

التحليلي النقدي مع ابن حزم. ولعل أبرز هذه المناهج، وأكثرها حضورا في الفكر الإسلامي، يبقى منهج الرد والمجادلة، والذي حظي بإقبال ثلة مهمة من علماء الإسلام، فكتبوا فيه الشيء الكثير[1]، واتخذ هذا المنهج أشكالا متعددة، منها شكل المناظرات الحية التي كانت تتم في مجالس عامة أو خاصة بين علماء مسلمين وغير مسلمين، ومنها شكل الرسائل المتبادلة[2]، حيث كان علماء الإسلام يقومون بالرد على بعض الرسائل التي يرسلها الأحبار أو الرهبان أو القساوسة إلى الأمراء والملوك، والتي تطعن في الإسلام وتنتصر لليهودية أو المسيحية. وهناك شكل ثالث أكثر انتشارا، تمثل في تلك الدراسات التي خصصها علماء الإسلام للرد على مسالة أو أكثر في ديانة ما، مثل كتاب أبي عيسى الوراق "الرد على فرق النصارى الثلاث" وكتاب الجاحظ "المختار في الرد على النصارى" وكتاب ابن القيم "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى".

ويعد أبو العباس القرطبي من خلال كتابه "الإعلام[3]" أحد أبرز علماء المسلمين في هذا النوع من الدراسات.

المبحث الأول: التعريف بأبي العباس القرطبي وبكتابه الإعلام

---

1 تزخر المكتبة الإسلامية بمئات الكتب من هذا القبيل، وقد وضع الباحث خالد مفلاس كتابا مصغرا في حدود ثلاثين صفحة، جمع فيه كتب المسلمين في مجادلة أهل الكتاب، ومن بين الكتب التي ذكرها: الرد على اليهود لأبي بكر الأصم شيخ المعتزلة. الرد على اليهود للجاحظ. بذل المجهود في إفحام اليهود السموءل بن يحيى المغربي. الضر المنضود في الرد على فيلسوف اليهود لابن الساعاتي. الحسام الممدود في الرد على اليهود لعبد الحق المغربي. الرد على النصارى لأبي بشر سهل بن المعتمر. الحجة على النصارى لسحنون المالكي. الرد على أهل الكتاب من الكتاب للخمي. الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل للغزالي. تخجيل من حرف الإنجيل لأبي البقاء الجعفري الهاشمي. النفائس في أدلة هدم الكنائس لابن الرفعة الشافعي.

2 مثل رسالة راهب دير كلوني Cluny في جنوب فرنسا إلى أمير سرقسطة في الأندلس، ورد أبي الوليد الباجي عليها. ورسائل بولس الراهب ورد ابن تيمية عليها.

3 الاسم الكامل للكتاب هو: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

أولا: التعريف بأبي العباس القرطبي

هو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري الأندلسي القرطبي. لقب بضياء الدين وبجمال الدين، كما عرف بابن المزين[1]. ولد سنة خمسمائة وثمانية وسبعين للهجرة (578) بقرطبة، وبها تلقى تعليمه الأولي، انتقل بعد ذلك إلى المغرب وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى المشرق واستقر في مصر، وهناك توفي سنة ستمائة وثمانية وخمسين للهجرة (656)[2]، خلف مجموعة من المؤلفات في فنون مختلفة، بعضها لا زال مخطوطا.[3]

قال عنه ابن فرحون المالكي (ت799): "كان من الأئمة المشهورين والعلماء المعروفين، جامعا لمعرفة علوم منها: علم الحديث والفقه والعربية وغير ذلك...وكان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في علم الحديث والفضل التام، وأخذ الناس عنه من أهل المشرق والمغرب."[4]

ثانيا: التعريف بكتاب الإعلام

أ: سبب تأليفه

ألف أبو العباس القرطبي كتابه الإعلام ردا على كتاب ألفه نصراني من طليطلة، سماه "تثليث الوحدانية"[5] ينتصر فيه للمسيحية، ويهاجم الإسلام. يقول القرطبي: "فقد وقفت – وفقك الله – على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين الملة النصرانية، سماه

---

1 لقب بذلك نسبة لعمل والده الذي كان مزينا، والمزين هو من يمتهن الحلاقة والحجامة والختان.

2 للتوسع في ترجمة أبي العباس القرطبي ينظر: ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة، ج1، ص242. الذهبي شمس الدين، الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق مصطفى بن علي عوض وربيع أبو بكر الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، 1993، ج2، ص447

3 مثل كتاب اختصار صحيح البخاري وكتاب الجامع لمقاصد علم الأصول.

4 الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مصدر سابق، ج1، ص242

5 القرطبي أبو العباس، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي القاهرة، 1980، مقدمة المحقق

كتاب تثليث الوحدانية، بعث به من طليطلة أعادها الله، إلى قرطبة حرسها الله، متعرضا فيه لدين المسلمين نائلا فيه من عصابة الحق الموحدين، سائلا عما لا يعنيه، ومتكلما بما لا يدريه، فأمعنت النظر فيه، فإذا بالمتكلم يهرف بما لا يعرف، وينطق بما لا يحقق، ناقض ولم يشعر، وعمي من حيث يظن أنه يستبصر... فاستخرت الله تعالى في جوابه على تخليط معانيه، وتثبيج خطابه."[1]

ب: محتواه

اشتمل كتاب الإعلام على أربعة أبواب وهي كالآتي[2]:

الباب الأول: بين فيه القرطبي مذاهب النصارى في الأقانيم الثلاثة، وأبطل قولهم فيها، كما ذكر قولهم في تعليل التثليث وأدلتهم ورد عليها.

الباب الثاني: بين فيه مذاهب النصارى في الإتحاد والحلول، وأبطل قولهم فيها، ورد أيضا على قولهم بالواسطة التي تجسدت بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام، وهي كلام الله تعالى لموسى في طور سيناء، كما ذكر مذهب أوغسطين ونقده نقدا شديدا.

الباب الثالث: خصصه القرطبي للحديث عن كلام النصارى في النبوات، فذكر عيسى ابن مريم وبين الحق فيه، وأثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل رغم تحريفهما، كما ذكر تحدث عن معنى النبوة ومعنى المعجزة مبينا أن معجزات عيسى عليه السلام لا تدل على ألوهيته.

الباب الرابع: بين فيه أن النصارى متحكمون في أديانهم، وأنه لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض أغراضهم وأهوائهم، وهذا ما جعلهم يخرجون عن تعاليم التوراة

1 نفس المصدر، ص43-44

2 نفسه، مقدمة المحقق

والإنجيل، وتحدث عن أسرار الكنيسة السبعة[1]، وعن شعائر النصارى وطقوسهم، كما ذكر عقائد الإسلام وأصول أحكامه، ورد على شبه النصارى.

ج: أهميته العلمية

يعتبر كتاب "الإعلام" من أهم كتب المسلمين في مجال مجادلة أهل الكتاب من النصارى، حيث رد فيه القرطبي على عقائد النصارى وأبطلها، مبينا ما في دينهم من فساد وأوهام، وهذا ما يجعله – حسب أحمد آيت بلعيد – موسوعة كاملة في صنف الردود على النصارى، حيث تطرق فيه لأمور عديدة، ففصل ووضح وشرح فأفهم، لذا يمكن تصنيفه ضمن أهم الكتب التي صنفت في هذا التخصص ككتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبي."[2] ويقول محقق الكتاب حجازي السقا: "وإنه لكتاب مفيد في علم مقارنة الأديان، لأن مؤلفه رد فيه على كتب كثيرة ورسائل للنصارى."[3] وقال خالد عبد الحليم: "يعتبر هذا الكتاب ذا أهمية كبرى في مجال الجدل الديني بالأندلس، لموسوعيته وكبر حجمه نسبيا، وتناوله لكثير من موضوعات الخلاف العقدي بين الإسلام والنصرانية."[4]

المبحث الثاني: منهج أبي العباس القرطبي في نقد عقائد النصارى من خلال كتابه "الإعلام"

أولا: المنهج العام لأبي العباس القرطبي في نقده لعقائد النصارى

---

1 وهي: سر المعمودية، وسر المسحة، وسر القربان، وسر التوبة، وسر مسحة المرضى، وسر الزواج، وسر الكهنوت.

2 القرطبي أبو العباس، إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، تحقيق أحمد آيت بلعيد، دار الكتب العلمية بيروت، مقدمة المحقق، ص16

3 الإعلام، مصدر سابق، مقدمة المحقق

4 السيوطي خالد عبد الحليم، الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم – الخزرجي)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2001، ص89

يمكن أن نعتبر القرطبي بالتعبير الحديث من المتخصصين في الديانة النصرانية، فقد كان متمكنا منها إلى درجة كبيرة، عارفا بخباياها، مطلعا على أسفارها[1]، وفرقها، وعقائدها وتاريخها، مما أهله للرد عليها ومجادلتها عن بينة وبرهان.

يقول محمد بن إبراهيم: "ثم إننا إذا كررنا النظر في الكتاب – الإعلام – استبان لنا أننا أمام كاتب عارف بطرق المجادلة، متمرس على فنون المحاجة، قد اطلع على كثير من أسفار النصارى وكتاباتهم، وتتبع بعض ما كتبه العلماء المسلمون من ردودهم عليهم... وهذه الأشياء كلها تنبئ أن مؤلف الإعلام شخص متخصص في الدراسات المتصلة بالنصرانية قد صرف وقتا من عمره للإحاطة بها."[2]

وقد سلك القرطبي منهجين رئيسيين في نقاشه مع النصارى ورده على عقائدهم هما: المنهج النقلي والمنهج العقلي.

أ: المنهج النقلي:

اعتمد أبو العباس القرطبي في رده على النصارى على مصادر مكتوبة مختلفة، إسلامية وغير إسلامية، منها القرآن الكريم[3]، والكتاب المقدس، وأقوال علماء النصارى وقسيسيهم، والروايات التاريخية.

---

1 يمكن أن نستشف اطلاع القرطبي على أسفار النصارى من خلال العدد الكبير من النصوص التي وظفها في كتابه، وكذا من خلال بعض أقواله الواردة في الكتاب، كقوله: "ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام بريء مما تدعونه به، وتنسبونه إليه" الإعلام، ص101. وقوله: "وإن أنكرتم شيئا من ذلك نزلنا معكم إلى ما في الكتب القديمة من قصص الأنبياء وكتبهم." الإعلام، ص135

2 أبو الخيل محمد بن إبراهيم، جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع السعودية،1998، ص403-404

3 قد يرى البعض أن الاستدلال بالقرآن الكريم في الرد على النصارى منهج غير سديد، لأن النصارى لا يؤمنون به أصلا، ولكن في بعض الأحيان قد يستدل النصارى أنفسهم بالقرآن الكريم، فيكون لا مناص من استعماله للرد عليهم، وهذا ما فعله القرطبي في مواضع كثيرة، ومن ذلك استدلاله بقوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى 11، لنفي التشبيه والتجسيم

ويعتبر الاستدلال بنصوص الكتاب المقدس من أكثر الأساليب أثرا وإقناعا، لإيمان أهل الكتاب بها، ولاعتقادهم أن ما جاء فيها حجة لهم لا عليهم، فالاستدلال بها استعمال لسلاحهم من أجل مواجهتهم. وهذا ما جعل القرطبي يعتمد عليها بشكل كبير في رده على النصارى، فمثلا نجده يوضح صورا من التناقض في الكتاب المقدس، فيورد نصا من إنجيل متى جاء فيه على لسان المسيح: "لا تحسبوا أني قدمت لأصلح بين أهل الأرض لم آت لصلاحهم لكن لألقي المحاربة بينهم إنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه والمرأة وابنتها حتى يصير أعداء المرء أهل بيته"[1]. ثم يورد نصوصا أخرى مناقضة تماما لهذا النص جاء فيها على لسان المسيح كذلك: "إنما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرا وأصلح بين الناس"[2] "من لطم خدك اليمنى فانصب له اليسرى"[3] ويعقب القرطبي على ذلك قائلا: "ولا مزيد في التناقض والفساد على هذا"[4]

وإلى جانب الكتاب المقدس، استدل القرطبي بأقوال علماء النصارى وقسيسيهم، ولا يخفى أن هذا النوع من الاستدلال له أثره الكبير لمكانة هؤلاء العلماء عند النصارى، واقتناعهم بأقوالهم، ولأنهم أعرف الناس بدينهم. وقد أورد القرطبي أقوالا كثيرة من هذا القبيل، منها قول أغستين في نفي التثليث: "...فثلاثتها اسم لإله واحد، ونعت لمدبر فرد، ولا تجد هي غيره، ولا يجد هو غيرها، فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل، وأمر بالإيمان به، وسماه باللسان العجمي: الأب والابن والروح القدس" ليعقب عليه قائلا: "فهذا كلام هذا القس، والنصارى يعترفون بأنه أعرفهم بدينهم وأعلمهم بشرعهم ويقينهم، ينص على أن الأقانيم الثلاثة صفات ونعوت للواحد الفرد، ولا يقال فيها: إنها

عن الله تعالى، ردا على قول النصراني: "إن كتابكم يقول إن موسى سمع الله وكلمه تكليما، فكيف ذلك، وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من إدراكه في الدنيا والآخرة، لأنه لا مفطور، ولا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام." الإعلام، ص105-107

1 إنجيل متى، 10: 34-36

2 إنجيل متى، 20: 28

3 إنجيل متى، 5: 39

4 الإعلام، ص209

هو، ولا هي غيره، وهو لعمري من المسددين في هذا النظر، إذ قد سلك مناهج البحث والعبر، ولقد قارب الحنيفية، وتباعد عن الملة النصرانية..."[1] كما استدل القرطبي بمجموعة من الروايات التاريخية المعروفة عند النصارى[2].

ب: المنهج العقلي

يعد هذا المنهج أكثر المناهج إلزاما للمعاند والجاحد لقيامه على بديهيات ومسلمات لا يختلف حولها اثنان، وقد استخدم القرطبي أساليب عقلية متنوعة في رده على النصارى، منها أسلوب السبر والتقسيم[3] الذي استخدمه القرطبي – مثلا – لإبطال مجموعة من الشعائر والعبادات التي ابتدعها رجال الكنيسة وألزموا بها عامة النصارى، ومن ذلك طقس المعمودية، حيث حصر القرطبي جميع أوصاف هذا الطقس، مبينا أنه ليس في أحدها خاصية تصوغ قبوله[4]. ومنها أسلوب قياس الأولى[5]، الذي أبطل به القرطبي حجة النصارى في اتخاذ المسيح عليه السلام إلها بدعوى ولادته من غير أب، معتبرا أن آدم أولى بذلك من المسيح. يقول: "بل لو أمكن لأحد أن يقول: عن بشر يتصور أن يكون إلها لكونه من غير أب، لكان آدم أولى بذلك... فقد شارك المسيح في كونه من غير أب، وزاد عليه في كونه من غير أم، لم يتكون في ظلمة الرحم، ولم يتلطخ بدم الطمث ولا خرج من مجرى البول، هذا مع الاعتراف بان ذلك كذلك، ولم يختلف في

---

1 الإعلام، ص83

2 يقول القرطبي: "ولتعلم أن هذه الأخبار التي ذكرناها لا يمكنهم إنكار جملتها وإن أنكروا بعض تفاصيلها لكون هذه القصص معروفة على الجملة عندهم." الإعلام، ص246

3 يعتمد هذا الأسلوب على حصر أوصاف الموضوع المجادل فيه، ثم بيان أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصية تسوغ قبول الدعوى فيه، فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع. الألمعي زاهر عواض، مناهج الجدل في القرآن الكريم، مطابع الفرزدق الرياض، ص74

4 الإعلام، ص403-405

5 وهو ما يكون معناه في الفرع زائدا على معناه في الأصل.

ذلك أحد."[1] ومنها كذلك أسلوب قياس التمثيل[2]، الذي استعمله القرطبي لنفي ألوهية المسيح التي ادعاها النصارى بناء على معجزاته وخاصة إحياء الموتى، مساويا في ذلك بينه وبين حواريه وغيره من الأنبياء. يقول: "فإن كان المسيح من أجل أنه أحيى ميتا هو الله، فكل من أحيى ميتا من الحواريين وغيرهم هو الله. ثم كل خارق للعادة يجعلونه دليلا على ألوهيته، فإنهم يعارضون بمثل ذلك في حق غيره من الأنبياء عليهم السلام، ويدعي ألوهيته، فلا يجدون فصلا بينهم، وبين من يعارضهم."[3]

ومنها أيضا أسلوب قياس الخلف[4]، وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه[5]. ومثاله عند القرطبي رده على اعتراض النصارى على المسلمين في نسبة الهدى والضلال إلى الله تعالى، حيث أثبت نسبتهما إليه سبحانه لاستحالة وجود خالق أخر محدث لهما، وفي ذلك يقول: "لا يشك عاقل أن الهدى والضلال وما في معناهما أمور محدثة، وأفعال موجودة بعد أن لم تكن، وكل فعل محدث فلا بد له من فاعل محدث بالضرورة، ففاعل الهدى والضلال وخالقهما، إما أن يكون الله سبحانه، أو غيره، محال أن يكون غير الله لاستحالة وجود خالقين، ويلزم منه امتناع الخلق، فلم يبق إلا أن يكون الفاعل هو الله تعالى، إذ لا خالق إلا هو، ولا مبدع سواه."[6]

ثانيا: ردود أبي العباس القرطبي على عقائد النصارى ونقده لها

وظف القرطبي المناهج والأساليب السابقة في رده وإبطاله لأهم عقائد النصارى، فكانت ردوده جامعة بين المنقول والمعقول.

---

1 الإعلام، ص136-137

2 وهو أن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف ويبين الجهة الجامعة بينهما.

3 الإعلام، ص136

4 هذه الأساليب مأخوذة عن جهود الإمام أبي العباس القرطبي في الرد على عقائد النصارى من خلال كتابه الإعلام. ماجستير في مقارنة الأديان. الباحث محمد الطرهوشي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس المغرب. ص50 وما بعدها

5 مناهج الجدل في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص77

6 الإعلام، ص455

أ: الرد على عقيدة تأليه المسيح ونقدها

1: الأدلة النقلية

استدل الإمام القرطبي على نفي ألوهية المسيح بنصوص من الكتاب المقدس، يقر فيها المسيح نفسه بعبوديته لله تعالى، ويدعو فيها إلى عبادة الله وحده، وقد أشار إلى عدد منها فقال: "وكيف يتصور أن يعقل الإلهية لمحدث مخلوق، يحزن تارة ويفرح أخرى، ويجوع تارة ويفرح أخرى، ويتبول ويتغوط، وتظفر به أعداؤه، ويعذبونه بالضرب والإهانة... وهو مع ذلك يقول: " إذا صليتم فقولوا يا أبانا السماوي، تقدس اسمك وقرب ملكك."[1] ويقول: "إن الله وحده ولا إله إلا هو."[2] ويقول لإبليس: "إنما أمرت أن تعبد السيد إلهك وحده."[3] ويقول حين قرب رفعه، واعلمه الله به: "سيلقى ابن الإنسان ما كتب له"[4] يعني نفسه، ثم تقدم، وسجد على الأرض، ودعا أن يزاح عنه ما هو فيه وقال: "يا أبتاه إنك قادر على جميع الأشياء، فرج عني هذه الكأس"[5]

وقد عقب القرطبي على هذه النصوص قائلا: "ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام بريء مما تدعونه به، وتنسبونه إليه."[6]

2: الأدلة العقلية

---

1 النص في إنجيل لوقا، 11: 2 "متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السماء، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك."

2 يشير إلى ما جاء في إنجيل مرقس، الإصحاح12: 17: "فأجاب يسوع: الوصية الأولى هي: اسمع يا إسرائيل: إن الرب إلهنا هو الرب الأحد."

3 جاء في إنجيل متى، الإصحاح الرابع: "للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد."

4 جاء في إنجيل متى، الإصحاح 26:24: "إن ابن الإنسان ماض، كما هو مكتوب عنه"

5 إنجيل متى، 26: 39

6 الإعلام، ص101

أبطل الإمام القرطبي أدلة النصارى في تأليه المسيح عليه السلام[1] بأدلة عقلية واضحة، فألزمهم في إثبات الألوهية للمسيح بسبب معجزاته إثباتها لباقي الأنبياء لاشتراكهم جميعا في ذلك، وفي ذلك يقول: "إذا كان إحياء الأموات يدل على الألوهية، فلأي شيء لا تقولون إن إلياس واليسع كانا إلهين، وأنه حل بناسوتهما اللاهوت، وشأنهما في إحياء الموتى لا يقدر أحد على دفعه ولا يخفى، ولما لا تعتقدون ألوهية النبي حزقيال إذ فر قومه وهم ألوف حذر الوباء، فأماتهم الله ثم جاءهم نبيهم فقال لهم: لتحيوا بإذن الله فحيوا ورجعوا إلى قومهم، سحنة الموت على وجوههم حتى ماتوا بآجالهم."[2] ثم لا يدع القرطبي لهم أي مجال للإنكار، حيث يخبرهم أن تلك المعجزات مذكورة في كتبهم. يقول: "وإن أنكرتم شيئا من ذلك نزلنا معكم إلى ما في الكتب القديمة من قصص الأنبياء وكتبهم."[3] وهكذا ألزم القرطبي النصارى بأحد أمرين: إما أن يقولوا إن غير عيسى عليه السلام ممن أحيوا أمواتا آلهة، وهذا لا يقوله النصارى، أو يقولوا إن هؤلاء أحيوا أمواتا بإذن الله تعالى، فإن قالوا ذلك فالجواب أن عيسى عليه السلام مساو لهم في ذلك، فلا فرق بينه وبينهم[4]. كما ألزمهم في إثبات الألوهية للمسيح عليه السلام بسبب ولادته من غير أب إثباتها لآدم عليه السلام لأنه كذلك خلق من غير أب. يقول: "أما من استدل على ذلك بأنه خلق من غير أب فيلزمه أن يعترف لآدم بالألوهية، فإنه لم يخلق من

1 غالبا ما يستدل النصارى على ألوهية المسيح عليه السلام بما ظهر على يديه من معجزات وخوارق وبولادته من غير أب

2 الإعلام، ص135

3 نفسه، ص135. ووردت قصة إحياء إلياس لابن الأرملة في الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الأول. ووردت قصة إحياء اليسع لميتين في الإصحاح الرابع والإصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الثاني. ووردت قصة إحياء حزقيال لقومه في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر حزقيال.

4 جهود الإمام أبي العباس القرطبي في الرد على عقائد النصارى من خلال كتابه الإعلام، محمد الطرهوشي، ص72

نطفة أب، إنما خلق من تربة أرض."[1] فهنا قاس القرطبي حال عيسى بحال آدم عليهما السلام، وان العلة التي يدعيها النصارى لإثبات الألوهية لعيسى عليه السلام مشتركة بينهما، مما يعني أن آدم ينبغي أن يكون إلها، وهذا ما لم يقل به أحد فبطل ادعاءهم.[2]

ب: الرد على عقيدة الصلب والفداء[3] وإبطالها

1: الأدلة النقلية

أورد الإمام القرطبي نصوصا كثيرة من الكتاب المقدس مبرهنا من خلالها على عدم حصول الصلب، منها:

جاء في إنجيل متى: "وقف على المسيح يهوذا، أحد الإثني عشر، ومعه جماعة برماح وعصي، وكان معهم قواد القسيسين وأكابر بني إسرائيل، وكان يهوذا قد قال لأولئك الأعوان: من قبلته من الجماعة، فهو المراد، فحبسوه، وفي ذلك الوقت دنا يهوذا إلى ياشوا (يسوع) وقال: السلام عليك يا معلم، فقال له ياشوا: يا صديق أقبلت هنا، فعند ذلك تعلقت الجماعة به وحبسته."[4] وفي إنجيل مرقس: "لما قبضوا عليه تخلى عنه التلاميذ وهربوا، فأتبعه شاب عريانا، وهو ملتف في رداءه، فقبضوا عليه، فاسلم له الرداء، ونجا عريانا."[5] وفي إنجيل لوقا: "أن بلاط (بيلاطس) لما أخبر أنه جلجالي وعلم انه من

---

1 الإعلام، ص136

2 جهود الإمام أبي العباس القرطبي في الرد على عقائد النصارى من خلال كتابه الإعلام، محمد الطرهوشي، ص73

3 تعد عقيدة الصلب والفداء أساس كل العقائد النصرانية الأخرى ومنبعها، يقول جوردن مولتمان في كتابه الإله المصلوب: "إن وفاة عيسى على الصليب هي عصب كل العقيدة المسيحية، عن كل النظريات المسيحية عن الله، وعن الحقيقة، وعن الخطيئة، وعن الموت، تستمد محورها من المسيح المصلوب، وكل النظريات المسيحية عن التاريخ، وعن الكنيسة، وعن الإيمان، وعن التطهر، وعن المستقبل، وعن الأمل إنما تنبع من المسيح المصلوب." ديدات أحمد، مسالة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ترجمة علي الجوهري، دار الفضيلة، ص10

4 إنجيل متى، 26: 47-50

5 إنجيل مرقس، 14: 51

طاعة هيرودس بعث إليه."[1] وفي إنجيل يوحنا أن يسوع تقدم لجماعة وقال لهم: "من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري، فقال لهم: أنا هو، وكان يهوذا المدل عليه واقفا معهم، فلما قال لهم: أنا هو، قهقروا إلى الخلف فتساقطوا في الأرض، ثم دنا منهم، فقال لهم: من تريدون؟ فقالوا له: ياشوا الناذري، فقال لهم ياشوا: قد قلت لكم: أني أنا هو، فإن كنتم إنما تريدونني أنا فأطلقوا سبيل هؤلاء."[2] وفي إنجيل متى: "أن يهوذا الدال عليه لما أبصر ما فعل به، ندم ورد الثلاثين درهما على قواد القسيسين، وقال: أخطأت إذ سلمت دما صالحا، فقالوا له: ما علينا، أنت ترى، فألقى الدراهم في البيت، وتوجه إلى موضع خنق فيه نفسه."[3]

هذه هي النصوص التي أوردها الإمام القرطبي، وقد عقب عليها قائلا: "هذه نصوص أناجيلهم، ومستند اعتقاداتهم، ليس شيء منها يدل دلالة قاطعة على أن المصلوب هو المسيح بعينه، بل إذا اعتبر العاقل تلك الحكايات المذكورة، ولفق متلفقها، وحقق النظر فيها، تفطن لموضع الإشكال، وتنبه لمثار الشك فيها والاحتمال."[4] ثم شرع في تبيين مواطن الاحتمال تلك، فذكر منها احتمال كذب يهوذا على اليهود في قوله "هو ذا" لأن اليهود كانت لا تعرف المسيح، ودليل القرطبي على ذلك هو أن يهوذا عرفهم إياه بالعلامة، وسؤالهم عنه، وكذلك سؤال بلاط عن بلده، يقول: "فهذا كله يدل على أنهم كانوا لا يعرفونه، وإنما عولوا في تعيينه لهم على يهوذا. فإذا تبث ذلك فيحتمل أن يكون يهوذا إنما أشار إلى غيره، لأنه كان ندم على بيعه." كما استدل القرطبي على هذا الاحتمال بقول عيسى ليهوذا "يا صديق" فلو كان مصرا على الدل عليه لما كان يحل لعيسى أن يقول له ذلك، لأنه يكون كافرا في تلك اللحظة، ولا يمكن أن يقول للكافر يا

1 إنجيل لوقا، 23: 7

2 إنجيل يوحنا، 18: 4-8

3 إنجيل متى، 27: 4-5

4 الإعلام، ص414

صديق، فإنه كذب.[1] وانطلاقا من هذه المعطيات يخلص القرطبي إلى إلزام النصارى بأحد ثلاثة أمور: إما أن يهوذا ما دل على عيسى عليه السلام، بل دل على غيره، وإما أن عيسى عليه السلام كاذب في وصف يهوذا بالصديق، وهو منزه عن الكذب، وإما أن كتاب النصارى باطل ومحرف.[2]

وذكر احتمال أن يكون المسيح في الجماعة الذين أطلق الأعوان سبيلهم، وكان المتكلم معهم غيره ممن يريد أن يبيع نفسه من الله ويقي المسيح عليه السلام به.

وذكر كذلك احتمال أن يكون أولائك الأعوان أخذوا عليه رشوة فأطلقوه، وعلى هذا يدل حديث رداء الشاب حيث قال مرقس إن الشاب أسلم إليهم الرداء لما تقبضوا عليه. وإذا جاز أن يأخذ يهوذا وهو من حواريه على قتله ثلاثين درهما، جاز أن يأخذ الأعوان على إطلاقه رداء.[3] أما الاحتمال الرابع والأخير فهو أن يكون الله تعالى قد رفع المسيح إلى السماء، وصور لهم شيطانا أو غيره بصورة تشبه صورته، فاعتقدوا أنه هو فصلبوه. ويستدل القرطبي على ذلك بسكوت المسيح عند سؤالهم له: أنت المسيح؟[4]

هذه إذن هي الاحتمالات التي قدمها القرطبي والتي شكك من خلالها في مسالة صلب المسيح، حيث بين أن النصوص التي تتحدث عن الصلب تحتمل عددا من التأويلات، وبالتالي فهي ليست نصوصا قاطعة.

2: الأدلة العقلية

إلى جانب الأدلة النقلية، ذكر الإمام القرطبي أدلة عقلية أبطل بها عقيدة الصلب والفداء ملزما النصارى في حال قبولها قبول أمور أخرى تؤدي بدورها إلى إبطالها، فقال: "ويلزمكم على ذلك أن يكون الله تعالى لم يتب على آدم عليه السلام إلا بعد أن صلب المسيح، وبذلك تكذيب كتب الأنبياء فأنها تقتضي أن آدم بكى على خطيئته، ودعا الله

1 نفسه، ص414

2 نفسه، ص414

3 نفسه، ص415

4 نفسه، ص416

تعالى حتى تاب عليه واجتباه، ويلزمكم أيضا عليه أن يكون نوح وإبراهيم وموسى، وما بينهم من النبيين عصاة بذنب آدم حتى صلب عيسى، وحينئذ غفر له."[1]

كما ذهب القرطبي إلى أن القول بالصلب يقتضي نسبة الله إلى الجور، وإلى أنه يأخذ بالذنب غير فاعله، ويعاقب على الزور غير قائله[2].

ج: الرد على عقيدة التثليث[3] وإبطالها

لم يخرج الإمام القرطبي في رده على هذه العقيدة عن منهجه الذي رد به على العقائد الأخرى، حيث جمع بين الأدلة النقلية والأدلة العقلية، مبرهنا من خلالها على فساد الأدلة التي اعتمدها النصارى في الاعتقاد بالتثليث. وفيما يلي أدلة النصارى على التثليث كما أوردها الإمام القرطبي ورده عليها:

يستدل النصارى على إثبات عقيدة التثليث بقول المسيح عليه السلام لحواريه حين بعثهم إلى جميع الأجناس: "من آمن منهم فعمدوه على اسم الأب، والابن، والروح القدس."[4] يقول صاحب كتاب "تثليث الوحدانية" وإنما خاطبنا بمثل تعقلنا فجعل هذه الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال، ثم واسط، ثم أخر[5].

وقد كان رد الإمام القرطبي على هذا الدليل بأن النص لا حجة لهم فيه، إذ ليس بنص قاطع، بل هو مما يقولون فيه متشابه، ولذلك فهو يقبل احتمالات منها: أن يكون مراد عيسى عليه السلام من الأب أنه ذو حفظ له وذو رحمة وحنان عليه وعلى عباده

---

1 نفسه، ص417

2 نفسه، ص418

3 تعتبر عقيدة التثليث من أهم أسس الديانة النصرانية، ولا يكون النصراني نصرانيا إلا بالاعتقاد بها، فلا يكفي الإيمان بألوهية المسيح وصلبه للدخول في النصرانية. يقول القس توفيق جيد: "إن عقيدة الثالوث أعظم العقائد المسيحية أهمية وأساسها كلها، لأنها تتصل بذات الله، فمعرفتها هي معرفة الله، والإيمان بها هو الإيمان بالله، ومن يجهلها يجهل مولاه، ومن ينكرها ينكر الله. محمد مجدي، الله واحد أم ثالوث، مكتبة النافذة، 2004، ص11

4 إنجيل متى، 19: 27

5 الإعلام، ص63

الصالحين، فهو لهم بمنزلة الأب الشفيق الرحيم، وهم له في القيام بحقوقه وعبادته بمنزلة الولد البار. ومنها أيضا أن يكون عيسى عليه السلام تجوز بإطلاق لفظ الأب على الله تعالى، لأنه معلمه وهاديه ومرشده، كما يقال: المعلم أبو المتعلم، ومن هذا قوله تعالى: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ[1])[2] وقد أيد الإمام القرطبي هاذين الاحتمالين بما جاء في الإنجيل من استعمال لفظ الأب لنفس المعنى، ومن ذلك قول عيسى عليه السلام للحواريين: "إذا صليتم فقولوا: يا أبانا السماوي، تقدس اسمك، وقرب ملكك."[3] وقوله أيضا: "فإذا كنتم أنتم على شرتكم تعرفون إعطاء الخيرات أولادكم، فكيف أبوكم السماوي."[4] فأثبت الإمام القرطبي من خلال هذه النصوص أن عيسى عليه السلام كان يطلق لفظ الأب على الله تعالى بالمعنى الذي يطلق على إبراهيم عليه السلام أنه أب، وذلك بمعنى المعلم الشفيق، ليخلص في الأخير إلى إلزام النصارى بعدم تخصيص المسيح باسم الابن، والله تعالى باسم الأب، وأن هذه الاحتمالات تجعل من النص الذي استدل به النصارى لإثبات عقيدة التثليث من المتشابهات التي لا ينبغي أن يصار إليها في الاحتجاجات وخصوصا في مجال الاعتقادات.[5]

ومما استدل به النصارى أيضا على التثليث قولهم: "كما قد فهمنا أن نفس الإنسان لا يقوم لها فعل إلا عن ثلاثة، إن نقص منها واحد لم يتم له فعل، وإن زاد فيها رابع لم يتفق، كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة، وذلك أن الإنسان لا يقوم له فعل دون ثلاثة، وذلك: القدرة والعلم والإرادة، لا رابع منها، فإن عجزت منها واحدة لم يتم له بالاثنين فعل... فقرب لنا الكتاب: معرفة الخالق بخلقه لهم، بمثل تعارفنا في أنفسنا، أن

---

1 الحج: 78

2 الإعلام، ص64

3 جاء النص في إنجيل متى، 6: 9-10: "فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك ليأت ملكك."

4 جاء النص في إنجيل متى، 8: 11: "فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالأحرى أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه."

5 الإعلام، ص66-67

القدرة والعلم والإرادة خواص قائمة هي المتممة للفعل منا، وأنها لذات واحدة وكذلك التثليث في الله واحد."[1] وقد رد الإمام القرطبي على هذا الكلام معتبرا إياه فاسدا، لأنه قياس الغائب على الشاهد، فهو قياس خال عن الجامع، وحتى لو كان هناك جامع لكان باطلا لأنه قياس جزئي على جزئي، يقول رحمه الله: "لو جاز قياس الباري سبحانه على خلقه، للزم ألا يكون قادرا حتى يكون ذا آلة وعصب ويد جارحة، فإن الواحد منا لا يكون قادرا حتى يكون كذلك، وكذلك كان يلزم ألا يكون عالما حتى يكون ذا قلب ودماغ إلى غير ذلك من المحالات، ويلزمك على مساق قولك أن يكون الباري تعالى جسما، فإنك كما لم تر موجدا ولا فاعلا للفعل إلا قادرا عالما مريدا، كذلك لم تر فاعلا ولا موجودا إلا جسما."[2]

ثالثا: مصادر القرطبي في رده على النصارى

يبدو واضحا من خلال كتاب "الإعلام" أن القرطبي قد اعتمد على العهد الجديد بطريقة مباشرة في رده على النصارى، والدليل على ذلك هو احتواء كتاب "الإعلام" على عدد كبير من نصوص الأناجيل، والتي استدل بها القرطبي على إبطال عقائد النصارى، وقد سبقت الإشارة إلى عدد منها. كما يمكن أن نستشف توفر القرطبي على العهد الجديد من خلال بعض العبارات الواردة في كتاب "الإعلام" كقوله: "ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام بريء مما تدعونه به، وتنسبونه إليه"[3].

ومن مصادر القرطبي أيضا في كتابه نجد أقوال علماء النصارى وقسيسيهم، فقد أورد القرطبي عددا منها لتعزيز أدلته وبراهينه، ومن ذلك قول أغستين في نفي التثليث: "...فثلاثتها اسم لإله واحد, ونعت لمدبر فرد، ولا تجد هي غيره، ولا يجد هو غيرها، فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الإنجيل، وأمر بالإيمان به، وسماه باللسان العجمي: الأب

1 نفسه، ص71

2 الإعلام، ص76

3 نفسه، ص101

والابن والروح القدس"[1] يقول القرطبي: "فهذا كلام هذا القس، والنصارى يعترفون بأنه أعرفهم بدينهم وأعلمهم بشرعهم ويقينهم"[2] هذا إضافة إلى إشارة القرطبي للعهد القديم في قوله: "وإن أنكرتم شيئا من ذلك نزلنا معكم إلى ما في الكتب القديمة من قصص الأنبياء وكتبهم."[3]

خاتمة

انطلاقا من كل ما سبق، يبدو واضحا أن القرطبي قد سلك في رده على النصارى منهجا اتسم بالعلمية في كثير من جوانبه، فهو قد رجع إلى مصادرهم الأصلية، وهذا من أبرز سمات منهج البحث العلمي الحديث في الأديان. كما كانت الموضوعية حاضرة في إبطاله لعقائدهم؛ ذلك انه لم يفعل ذلك دون حجة أو برهان، بل اعتمد على الأدلة والبراهين التي لا ينكرونها، وهي نصوصهم المقدسة، والتي لا يختلف فيها اثنان، والمقدمات والبديهيات العقلية والمنطقية. فكان رده قائما على الحجة والبرهان لا على الهوى والبهتان. وهذا ما جعل القرطبي واحدا من أبرز علماء الإسلام في مجال دراسة الأديان عموما، ومجادلة النصرانية خصوصا.

ورغم أن هذا النوع من دراسة الأديان عند المسلمين لم يحض باهتمام الغربيين والمستشرقين لاعتقادهم خلوه من الموضوعية العلمية، إلا أن النتائج التي قدمها علماء المسلمين ومنهم القرطبي كانت مهمة جدا، خاصة فيما يتعلق بنقد وإبطال عقائد أهل الكتاب، وتبيين مناقضتها للعقل والمنطق بأدلة عقلية ونقلية. ثم إن هذا النوع من الدراسة قد فعله ثلة من علماء الغرب المعاصرين ووصلوا إلى نفس ما وصل إليه علماء المسلمين، فقد انتقد شاغل جينيبغ في كتابه "المسيحية نشأتها وتطورها" العقائد المسيحية انتقادا شديدا، فاعتبر مثلا ادعاء بنوة المسيح لله تعالى من السفه الديني. وفي القرن الثامن عشر هاجم فولتير – الذي تلقى تعليمه في الكلية اليسوعية – العهد الجديد معتبرا

1 نفسه، ص83

2 نفسه، ص83

3 نفسه، ص135

أن مؤلفي الأناجيل الأربعة يتناقضون تناقضا فاحشا فيثبتون كذبهم، ليخلص إلى رفض العقائد المسيحية الرئيسية التي تشمل التثليث وألوهية المسيح، كما رفض التجسد والوحي واعتبرهما انتقاصا من عظمة الكائن الأعلى.[1] وقبله كان القسيس الفرنسي ريتشارد سيمون قد وضع كتابا نقد فيه الكتاب المقدس نقدا شديدا. إضافة إلى نقد اسبينوزا وغيره.

وفيما يلي أهم نتائج البحث:

- ✓ يعتبر علماء الإسلام من رواد دراسة الأديان في الفكر الإنساني، فقد قدموا إسهامات قيمة، وأضافوا إضافات وازنة لعلم مقارنة الأديان تميزوا بها عمن سبقهم، وسبقوا بها من جاء بعدهم في المجال.
- ✓ أسهمت عدة عوامل في دفع علماء الإسلام إلى دراسة الأديان، كان أبرزها القرآن الكريم والتسامح الذي عرف به المسلمون اتجاه الآخر.
- ✓ يعد أبو العباس القرطبي رائدا من رواد دراسة الأديان في الفكر الإسلامي، وخاصة فيما يتعلق بالنصرانية، ويعد كتابه "الإعلام" من أهم كتب المسلمين في مجال مجادلة النصارى.
- ✓ درس القرطبي الديانة النصرانية دراسة دقيقة، فبين فساد عقائدها الأساسية التي تقوم عليها، متبعا في ذلك منهجين أساسيين: المنهج النقلي والمنهج العقلي.
- ✓ طبق القرطبي بعض شروط البحث العلمي في الأديان وأخلاقياته، كالرجوع إلى المصادر الأصلية للديانة المدروسة، والتزام الموضوعية.

وختاما، فبالنظر إلى أثر المسلمين البارز في هذا الحقل العلمي الإنساني الموسوم بعلم مقارنة الأديان، وإسهامهم المتميز في مسيرة بنائه ووضع أسسه وقواعده، وإشادة أكثر الباحثين المعاصرين بما قدمه المسلمون في هذا المجال إلى حد اعتبارهم المؤسسين الحقيقيين لهذا العلم، فإني أدعو – سواء الجهات الوصية أو الباحثين – إلى مزيد اهتمام

1 إيلي ألفا روني، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، دار الكتب العلمية بيروت،1992، ج2، ص175

بهذا الفرع العلمي الإنساني، وإيلائه العناية المستحقة، سواء على مستوى تدريسه بالجامعات، أو على مستوى إقامة الندوات والمؤتمرات الخاصة به.

المصادر والمراجع:

- ✓ القرآن الكريم
- ✓ الكتاب المقدس، دار المشرق بيروت، طبعة 1994
- ✓ أبو العباس القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي القاهرة، 1980
- ✓ أبو الخيل محمد بن إبراهيم، جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع السعودية، 1998
- ✓ الألمعي زاهر عواض، مناهج الجدل في القرآن الكريم، مطابع الفرزدق الرياض
- ✓ إيلي ألفا روني، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، دار الكتب العلمية بيروت، 1992
- ✓ ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة
- ✓ تركي إبراهيم، علم مقارنة الأديان عند مفكري الإسلام، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، 2002
- ✓ جهود الإمام أبي العباس القرطبي في الرد على عقائد النصارى من خلال كتابه الإعلام. ماجستير في مقارنة الأديان. الباحث محمد الطرهوشي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس المغرب
- ✓ حايفي مسعود، مدخل لدراسة تاريخ الأديان، دار الأوائل للنشر والتوزيع دمشق، 2010
- ✓ دراز عبد الله، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم للنشر والتوزيع القاهرة، 2003

- ديدات أحمد، مسالة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء، ترجمة علي الجوهري، دار الفضيلة
- الذهبي شمس الدين، الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق مصطفى بن علي عوض وربيع أبو بكر الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، 1993
- السيوطي خالد عبد الحليم، الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم – الخزرجي)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2001
- الشرقاوي محمد عبد الله، في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات، دار الفكر العربي القاهرة، 2002
- القرطبي أبو العباس، إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، تحقيق أحمد آيت بلعيد، دار الكتب العلمية بيروت، مقدمة المحقق
- محمد مجدي، الله واحد أم ثالوث، مكتبة النافذة، 2004
- ميرا دين محمد، في علم الدين المقارن، مقالات في المنهج، دار البصائر القاهرة، 2009